

وحيد الدين خان ونظرية الإسلام يتحدى

الدكتور / محمود محمد علي

أستاذ الفلسفة / جامعة أسيوط



وحيد الدين خان ونظرية الإسلام يتحدى



وحيد الدين خان ونظرية الإسلام

يتحدى

يعد وحيد الدين خان أعظم مفكر وفيلسوف هندي طوال الـ ٧٠ عامًا الماضية، وأعظم مفكرى الإسلام على مستوى العالم، وهو من القلائل الذين جمعوا بين منهج الإسلام المعرفى والمنهج العلمى والفلسفى الحديث، ولذلك نجح فى مقارعة الإلحاد والعلمانية والماركسية بالحجة العقلية، التى تصلح لإقناع المؤمنين وغيرهم على السواء.

كما يُعد وحيد الدين خان كذلك المؤسس الحقيقى لعلم كلام إسلامى حديث يناسب

العصر، كما قال عنه د. محمد عمارة: «لقد وهب حياته كلها للدعوة الإسلامية، وتخصص في إقامة الأدلة العلمية على الإيمان الديني، فبلور علم كلام جديد يناسب عصر العلم، خاليًا من جدل الفرق الإسلامية القديمة، ومتجردًا عن محاكاة الفلسفة الإغريقية القديمة، وقد أعانته على ذلك ثقافته العلمية الواسعة ليقدّم أعمالًا فذة غير مسبوقه».

ومن أهم كتبه التي تُرجمت إلى العربية واشتهرت في الوطن العربي "الإسلام يتحدى"، الذي أثر في جيل كامل من العرب ونقل شبابهم من الإلحاد وجحود الله - الذي شاع في

الستينيات وأوائل السبعينيات - إلى الإيمان
والعودة إلى الله، ومنها كتبه «تجديد علوم
الدين» و«حكمة الدين» و«الدين في مواجهة
العلم» و«المسلمون بين الماضي والحاضر
والمستقبل» و«خواطر وعبر».

وقد تميّز المفكر الهندي وحيد الدين خان
منذ أن أصدر كتابه الإسلام يتحدّى عام
١٩٦٦ باللغة الأردية، في الهند، بأنه أراد في
جميع كتبه تقديم تصوّرات جديدة عن الإسلام،
وتصحيح ما علق به من إضافات وأوهام،
اعتبرها ديناً موازياً، ومعارف ثانوية، أثقلت
العقل الإسلامي بأعباء كانت سبباً في نظره،

في تكريس الجمود والتخلف. فعمل جاهداً على
نشر الدعوة الإسلامية وإحياء الفكر الإسلامي
في ربوع الهند منذ زمن مديد. لتحقيق
مشاريعه، والتعريف بأفكاره.

وكتاب الإسلام يتحدى هو كتاب في العقيدة
من تأليف وحيد الدين خان وترجمة ظفر
الإسلام خان ومراجعة وتقديم عبد الصبور
شاهين، يرد الكتاب على شبهات أهل الإلحاد،
ميزة الكتاب أنه يعالج موضوع الإعجاز العلمي
للقرآن الكريم، وكذلك إثبات الأدلة على البعث
والقيامة، ومناقشة القائلين بصدفة وجود
الكون، والقائلين بالتطور بأسلوب فريد يتسم

بالدقة والموضوعية والمنهجية العلمية، والكاتب
رجع لكثير من الكتب الغربية لمفكرين وأساتذة
كبار في المجالات العلمية المختلفة، ف جاء
الكتاب مخاطباً للعقل والوجدان، كاشفاً اللثام
عن حقائق مهمة وخطيرة.

وفي أحد أحاديثه الصحفية؛ عندما سُئِلَ عن
سرّ اختياره لعنوان "الإسلام يتحدى"، كعنوان
لكتابه الأشهر، قال خان إن "هذا الدين جواب
محدد لكل الأسئلة التي تورقنا في كفاحنا
الحضاري، إنه يوجّهنا إلى المشرع الحقيقي
الطبيعي، وهو يضع لنا الأساس النظري
للقانون ولكل شيء، فهو يمنحنا أساساً صائباً

لكل مسألة في هذه الحياة، حتى يمكن لها الوصول إلى أعلى درجات الازدهار والرقى، كما أنه يهيئ لنا الأساس النفسي، الذي يصبح القانون بدونهُ مشلولاً تماماً وبلا حراك، كما أنه يخلق لنا ذلك المناخ المناسب الذي لا بد منه لتطور أي مجتمع تطوراً حيويًا وفعالاً.

وقد حمل الكتاب عنواناً أصغر هو: "مدخل علمي إلى الإيمان"، وجاءت الطبعة التي بين أيدينا في ٢٦٤ صفحة، وقسم المؤلف المادة التي وضعها فيه إلى تسعة أبواب. الباب الأول منها، تناول قضية معارضي الدين كمبدأ، في الآفاق التاريخية والنفسيّة، وحتى من الزاوية

البيولوجية. أما الباب الثاني، فقد قدم نقدًا
لأفكار معارضي الدين، فيما يخص حقيقة
الطبيعة، مع استدالات بالتاريخ والاجتماع
حول الخلق وحقيقة خلق الإنسان. الباب
الثالث، فند بعض الأمور التي جاء بها
الملحدون من خلال العلم، حول حقيقة الخلق،
ومن بينها الأخطاء التي تقود إليها التجربة
والقياس في المنهج العلمي في بعض الأحيان،
ونظرية التطور العضوي، وغير ذلك. الباب
الرابع، قدم فيه الأدلة على وجود الله تعالى من
خلال الطبيعة، والفلك، وغير ذلك، فيما تناول
في الباب الخامس، الأدلة القائمة على وجود
الآخرة، والحياة بعد الموت. الباب السادس تناول

فيه إثبات الرسالة وأدلة ذلك، فيما الباب السابع أثبت فيه أدلة أن القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى وكلماته إلى الناس، مع لمحات عن جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. أما الباب الثامن، فقد تناول فيه خان كيف عالج الدين مشكلات الحضارة، وبالذات في مجال التشريع، وفي الحقوق والعدل داخل المجتمعات الإنسانية. وأخيراً، تناول خان في الباب التاسع شكل الحياة الإنسانية كما يتصورها الإسلام.

وقد حاول المؤلف القيام بأمرين : الأول : إثبات أن النظريات العلمية - الفيزيائية

والفلكية وغيرها - لا تعارض أصول الإسلام،
وقد أجاد في هذا الأمر، والثاني : إثبات أن
النظريات العلمية تدل وتؤكد صحة أصول
العقائد الكبرى للإسلام، وهو في هذا الأمر لم
يحسن؛ لأنه لم يخل من التكلف في الاستدلال.
مع أهمية الكتاب إلا أن المؤلف وقع في بعض
الأخطاء، ومنها : توسعه في الاستدلال ببعض
النظريات العلمية على قضايا العقيدة، وهي لم
تصل إلى درجة القطعيات، ومنها : تشبيه
لنظرية تحضير الأرواح وقبوله لها.

في أحد أحاديثه الصحفية؛ عندما سُئِلَ عن
سرّ اختياره لعنوان "الإسلام يتحدى"، كعنوان

لكتابه الأشهر، قال خان إن "هذا الدين جواب
محدد لكل الأسئلة التي تورقنا في كفاحننا
الحضاري، إنه يوجّهنا إلى المشرع الحقيقي
الطبيعي، وهو يضع لنا الأساس النظري
للقانون ولكل شئ، فهو يمنحنا أساساً صائباً
لكل مسألة في هذه الحياة، حتى يمكن لها
الوصول إلى أعلى درجات الازدهار والرقي، كما
أنه يهيئ لنا الأساس النفسي، الذي يصبح
القانون بدونه مثلولاً تماماً وبلا حراك، كما أنه
يخلق لنا ذلك المناخ المناسب الذي لا بد منه
لتطور أي مجتمع تطوراً حيويًا وفعالاً"، وفي
أحد كتبه قال: "في هذا العالم، لا يمكن تحقيق
الوحدة إلا من خلال القبول بالاختلافات، بدلاً

من الإصرار على الوحدة دون اختلافات
والسعى لاستئصالها التام، وهذا أمر مستحيل،
يكمن سر تحقيق السلام في الحياة عبر
التسامح."

ومن الموضوعات التي أثارت انتباهي في
شخص وحيد الدين خان أنه كانت له بصمته
البارزة في السلام العالمي، ففي عام ٢٠٠١،
أسس مركز السلام والروحانية لتعزيز ثقافة
السلام في مختلف دول العالم، والذي كان
مصدر إلهام لكثيرين من خلال تشجيع أعضائه
على أن يصبحوا سفراء للسلام حول العالم فهو
صاحب أسلوب فريد، لم ينل شهرته التي بلغت

الآفاق من مؤلفاته فقط، بل من خلال فكرته
وفلسفته حيث استطاع بحكمة رصينة أن
يوظفهما ليقم الحجة على مناظريه، خاطب
قلوبهم وعقولهم ليدعوهم إلى عبادة الله الواحد
الأحد، ويقنعهم بوجوده سبحانه وتعالى، وقد
أثبت لهم ذلك عبر قوانين الإحصاء والفلك
والرياضيات والفيزياء والكيمياء، والأغرب أنه
استند إلى بعض أبحاث ونظريات اللادينيين
والملحدين العلمية وقلبها بأسلوب علمي
لصالح إثبات وجود الله، هو مؤلف "الإسلام
يتحدى" الذي ذاع صيته في كل أرجاء الأرض،
إنه المفكر الإسلامي الهندي والباحث البارز
وناشط السلام "وحيد الدين خان"، الذي توفي

قبل أيام قليلة عن عمر ناهز ٩٦ عامًا، بعد مسيرة طويلة زاخرة بالعطاء في مجال الدعوة الإسلامية واهتمامه بقضايا الدين والأمة الإسلامية، والتي كانت في مقدمتها قضية فلسطين.

كما كان خان غزير الإنتاج الفكري؛ وقد ساعده في ذلك معرفته الثاقبة في علوم الأديان، وقدرته على مخاطبة العقل والوجدان، تتميز مؤلفاته أنها تجمع بين البساطة والعمق وبالتالي فهي تناسب مختلف شرائح القراء، وقد ألف خان العديد من الكتب التي تجاوزت ٢٠٠ كتاب، وقد تُرجمت معظمها إلى لغات عدّة،

ولعل أشهرها على الإطلاق كتابه "الإسلام يتحدى"، والذي كان له الأثر الكبير على الملايين الذين اطلعوا عليها، وهو من أهم الكتب التي تؤسس الاقتناع العلمي لدى الشباب المسلم بصحة العقائد الدينية الكبرى، وفيه أراد خان الاحتجاج على الملاحدة بما هو من جنس أدلتهم، والاستدلال على الماديين بما كشفته الأبحاث والنظريات الحديثة، التي يستدلون بها على نقد الدين ونقضه، بالإضافة إلى هذا الكتاب هناك مؤلفات أخرى مثل "الدين في مواجهة العلم"، و"أيديولوجيا السلام"، و"ظهور الإسلام"، و"رسول السلام.. تعاليم النبي محمد"، و"سقوط الماركسية"، و"الجهاد

والسلام والعلاقات المجتمعية في الإسلام"، إلى جانب كتاب "حاضرنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام"، و"حكمة الدين"، و"قضية البعث الإسلامي"، و"الإنسان القرآني"، و"شرح مشكاة المصابيح"، كما ألف أيضاً تعليقا من مجلدين على القرآن الكريم، وقد حصد خان العديد من الجوائز والتكريمات، منها جائزة ديمورغوس للسلام الدولية، وجائزة غاندي الوطنية وجائزة المواطن الهندي الوطني، إضافة إلى جائزة بادما فيبهوشان، التي تعدّ ثاني أعلى جائزة مدنية في الهند.

وقد توفي في العاصمة الهندية نيودلهي، في
٢١ أبريل ٢٠٢١ ، المفكر الإسلامي الهندي
الكبير "وحيد الدين خان" عن ٩٦ عاماً، تاركاً
خلفه مكتبة علمية كبيرة. والميزة التي يمتاز
بها وحيد الدين من بين أقرانه من مفكري
العصر إتقانه اللغات و قراءة الكتب العلمية
والفكرية باللغة الإنجليزية، ويمكن تقدير سعة
اطلاعه وعمق دراسته من خلال مؤلفاته ذات
المستوى العلمي الرفيع، والتي تظهر عمق
ثقافته الإسلامية وتمكنه من ثقافة العصر.

والواقع أن الرجل الذي رحل قبل أيام كان حالةً
فريدة في الفكر الإسلامي، من حيث مساره

الفكري والسياسي وإنتاجه العلمي. وقد انضم مولانا وحيد الدين خان مبكراً لـ«الجماعة الإسلامية» التي أسسها أبو الأعلى المودودي في شبه القارة الهندية عام ١٩٤١ على غرار تنظيم «الإخوان المسلمين» في مصر، لكنه انسحب منها في بداية الستينيات بعد خمسة عشرة سنة من الانتماء، إثر خلاف عميق مع نهج الجماعة في تصور الخطاب الإسلامي وفي نهج الدعوة وأولوياتها.

في كتابه "خطأ في التفسير" الصادر بالأوردية عام ١٩٦٣ (ترجم للعربية سنة ١٩٩٢) يورد وحيد الدين خان كما يقول د.

السيد ولد أباه في مقال له بعنوان ("وحيد الدين خان" والتفسير السياسي للدين) بالتفصيل الخلفيات الكاملة والمفصلة لقطيعته مع المودودي وجماعته، ناشراً الرسائل التي تبادلها مع قادة الجماعة، بمن فيهم المودودي نفسه الذي أثر عدم الرد على اعتراضاته الجوهرية بخصوص فهم الإسلام والدعوة إليه.

ما يظهر من كتاب وحيد الدين خان الهام هو كما يقول د. السيد ولد أباه أن خلفه مع جماعة المودودي تركّز حول جوهر الأطروحة التي تنطلق منها كل جماعات الإسلام السياسي وهو التفسير السياسي للدين،

باعتباره نظاماً كاملاً ومفصلاً للحياة ليست
الجوانب التعبدية فيه سوى مكونات جزئية من
مشروع مجتمعي يكرس «حاكمية» الله على
الأرض .

وإذا كان حسن البناء هو الذي بلور
الاتجاهات الكبرى لمشروع الإسلام السياسي،
فإن المودودي كما يقول د. السيد ولد أباه هو
الذي صاغ أدواته النظرية الأساسية في كتابه
الشهير «المصطلحات الأربعة في القرآن»،
ويعني بها الإله والرب والدين والعبادة. ولقد
شكل هذا الكتاب المادة الأساسية لتفسير

المودودي للقرآن الكريم، الذي لا يختلف عن التفسير الأيديولوجي لسيد قطب.

في كتابه "خطأ في التفسير" كما يقول د. السيد ولد أباه يقف وحيد الدين خان طويلا عند تصور المودودي لإقامة الدين، راجعاً إلى التفاسير الكبرى المعتمدة في التراث الإسلامي، مبيناً أن التفسير السياسي للدين يتعارض كلياً مع فهم سلف الأمة وعلمائها الذين أجمعوا على أن الدين هو في جوهره علاقة تعبد بين الله وعباده، وأن غرضه الهداية والخلص في الآخرة، لا فرض نظام سياسي أو أيديولوجي بالانقلاب والإكراه أو العمل الحزبي النضالي.

وفي حين ينتقد وحيد الدين خان مقولة
"الحكومة الإلهية" أو "إقامة الدين في الأرض"
التي وردت كما يقول د. السيد ولد أباه في
دستور الجماعة الإسلامية الباكستانية، يوضح
أن خلافه مع المودودي لم يكن مجرد تباين
ظرفي في التوجه والممارسة، بل خلاف جوهري
في فهم الدين وتصوره، منتهياً إلى أن حركات
الإسلام السياسي تسعى في الحقيقة إلى إلغاء
المرجعية الدينية للأمة وبناء إسلام جديد على
أسس أيديولوجية لا صلة لها بالموروث
العقدي والتأويلي للمسلمين .

ولا شك أن هذه المقاربة الانقلابية العدمية هي كما يقول د. السيد ولد أباه بالنسبة له منبع مسلكيات التشدد والعنف التي تسم التنظيمات الإسلامية المتطرفة، باعتبارها نقلت الدين من دلالاته الروحية ووظيفته الإرشادية الأخلاقية، ليكون منظومة أيديولوجية تعتمد على الدولة وتفرضها على الناس.

ولقد كان وحيد الدين خان من دعاة السلم والساعين إلى تثبيته في بلاده ما بين الهندوس والمسلمين، مستلهماً روح الدعوة النبوية التي كان أساسها نشر الخير والتبشير به، ولم تكن الحرب وسيلة لها. وهكذا يبين

خانا أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يحارب في حياته إلا في ثلاث وقائع قصيرة كانت كلها للدفاع عن النفس وتفادي العنف الأقصى.

كان وحيد الدين خان موضوع إجماع في بلاده الهند، وكانت علاقاته كما يقول د. السيد ولد أباه مكيمة بكل قادة الطوائف، بما أهله لفك النزاعات التي كثيراً ما تتدلع بين المسلمين وغيرهم، ومن بينها أزمة المسجد البابري عام ١٩٩٢ التي كادت تؤدي إلى حرب أهلية طاحنة في الهند. وفي مرحلة ارتفع فيها صوت التطرف والعنف الراديكالي، اعتبر مولانا أن

خط التمايز اليوم داخل الساحة الإسلامية يكمن في الفصل ما بين التصور الروحاني القيمي للدين المؤسس لعلاقات السلم والتعايش والمودة بين البشر على اختلاف معتقداتهم ومثلهم، والتصور السياسي الأيديولوجي للدين الذي يحوله إلى أداة للكراهية والإقصاء والقتل.

د. محمود محمد علي

رئيس قسم الفلسفة وعضو مركز دراسات

المستقبل - جامعة أسيوط

